

الموت في الفلسفة الإسلامية

صدر الدين الشيرازي نعوذ بـ^(١)

السيد محمد الخامنئي

تعریف: محمد حسن زراقط



يحاول السيد محمد الخامنئي المتخصص في الفلسفة الإسلامية أن يعالج مفهوم الموت من وجهه نظر الفلسفة الإسلامية بعامة وفلسفة صدر الدين الشيرازي بخاصة ليتوصل إلى أن الموت من وجهة نظر الشيرازي ما هو إلا ولادة جديدة وانتقال من مرحلة إلى مرحلة أرقى، وكل ذلك على ضوء نظرية الشيرازي حول الحركة الجوهرية التي تمثل إحدى أبرز إبداعات فلسفة الحكمة المتعالية.

على الرغم من حاجة النفس إلى البدن وانطلاق مسيرتها مع بداية تكوونه. وعلى حد تعبير الفلاسفة على الرغم من كون النفس جسمانية الحدوث، إلا أنها بعد انطلاقها الجسماني تحول إلى راع وحافظ للبدن، ومتابع لنموه وتطوره. وبين فلاسفة المسلمين يعتقد ملا صدرا على خلاف غيره من الفلاسفة، بأن البدن تابع للنفس وليس العكس. وإن كانت ترافقه وتصحبه لتصل إلى كمالها. والمفارقة الملفتة، بحسب ملا صدرا أن البدن يتوقف عن النمو والتطور في مرحلة من المراحل بينما تتبع النفس مسيرتها التكاملية، بل بين تكامل النفس وضعف البدن تناسب عكسي فكلما تكاملت النفس تركت أثراًها على البدن انحطاطاً وتدهوراً وعجزاً، إلى يصل بها الأمر إلى خلعه والانعتاق من أسره. وتركه جثة هامدة لا حياة فيها.

ويمكن النظر إلى ظاهرة الموت من زوايا عده، وإخضاعها للبحث والتحليل من أبعاد مختلفة. فالمموت من وجهة نظر الأطباء وعلماء الأحياء هو تعطل الأجهزة الفاعلة في بدن الكائن الحي، تلك الأجهزة والقوى التي تشكل عندما تعمل مفهوم الحياة فيه. ولا يخفى انحصر هذه النظرة وتركيزها على البعد المادي للحياة، حيث إن مؤشرات الحياة فيها، هي ما يدرك بالحواس الخمس، مثل توقف القلب عن الخفقان، وموت الدماغ وانخفاض درجة الحرارة، وما شابه من العلامات التي يشخص الأطباء بواسطتها حالة الموت.

الموت بنظرة فلسفية:

وتختلف النظرة الفلسفية إلى الموت عن النظرة الطبية، وذلك أن الفلاسفة يرون في الموت مغادرة للروح أو النفس للجسد عندما لا يعود صالحًا لاستعمالها، ويشبهه الفلاسفة الموت بمغادرة الإنسان منزله عندما لا يعود للسكن لخرابه وأنهادام أركانه، فإنه في مثل هذه الحالة يضطر الساكن إلى ترك المنزل والانتقال إلى محل آخر بصفة لاجئ. ومثل هذا الموت يسميه الفلاسفة بالموت الطبيعي، وما يميّزه عن غيره من أنواع الموت التي يذكرونها هو أنه نتيجة لخراب بيت النفس وأنهادمه وزوال صلاحيته لتسخيرها. والنوع الثاني من الموت عند الفلاسفة هو ما يسمونه بالموت الاخترامي، الحادث عن فعل عمدي أو غير

عمدي من الكائن الحي نفسه أو من غيره من البشر أو سائر قوى الطبيعة.

الموت عند صدر الدين الشيرازي:

يطرح الفيلسوف صدر الدين الشيرازي، المعروف بـ ملا صدرا (١٠٤٥ - ٩٧٩)، تعريفاً للموت مغایراً للتعريف الذي يتبنّاه الأطباء، فبعد أن ينكر على الأطباء فهمهم للموت على أنه نتيجة لخراب بنية الجسد وزوال صلاحيته لاستقبال النفس، يشير إلى نوعي الموت المشار إليهما أعلاه، ويحدد تصوره للموت على أنه انعتاق للروح من أسر البدن، عندما تستفني عنه في سيرها التكاملية. والنفس الإنسانية وإن كانت في بداية مسيرتها مادية المنشأ محتاجة إلى البدن لترقى مدارج الكمال، إلا أنها بعد تجاوزها مرحلة التكامل المادي تتبع طريقها مختلفة البدن وراءها بعد الاستفنا عنه. وهي تختلف عن البدن من حيث إنها لا تشيخ ولا يعرض لها الهرم.^(٣)

ويبني هذا التصور الصدرائي لمفهوم التكامل على مفهوم «الحركة الجوهرية»^(٤) الذي يعد بحق أهم ادعاءات ملا صدرا الفلسفية، وحاصله أن جواهر الأشياء في العالم المادي المحسوس لا قرار لها ولا تعرف السكون، بل هي في حالة تكامل تدريجي، وانتقال من حالة جوهرية إلى حالة أخرى. وهذه الحركة هي حركة تكاملية. وعالم ملا صدرا من هذه الناحية مختلف عن عالم أرسطو الساكن. وقانون التكامل الجوهرى ينطبق على النفس الإنسانية كما ينطبق على غيرها من الجواهر.

ووفق هذا القانون العام في فلسفة ملا صدرا تتكامل النفس الإنسانية يوماً بيوم، تبدأ رحلتها مع الجسد ثم بعد وصولها إلى مرحلة من التكامل، تستفني عن البدن وتغادره وتطلق وحدها في عالمها الخاص الذي من أجله وجدت. فهي أشبه بالقمر الصناعي الذي ينطلق مع الصاروخ ثم بعد أن يقطع شوطاً من سفره يترك الصاروخ وينطلق وحده ليتحرك في المدار المرسوم له. إذا، هذا هو الموت من وجهة نظر العرفاء.

ويعتقد ملا صدرا بأن النفس بعد مغادرتها البدن المادي تكتسب بدنًا غير مادي يتمتع بخصائص البدن المادي نفسها، ومن هنا فإن النفوس تتعارف في عالمها الجديد بواسطة الأبدان المكتسبة غير المادية.

والنفس وإن كانت في بدء تكونها محتاجة إلى البدن ومعتمدة عليه، إلا أنها بعد اكتسابها تجردتها تتقلب طبيعة علاقتها به فتصبح هي الحامية له والمدافعة عنه. وبحسب تعبير ملا صدراً تصبح هي الحامل له بدل أن يحملها، وعلى ضوء هذا الموقف الفلسفى ينكر الاعتقاد القائل بحاجة النفس إلى البدن على مدى حياتها. وبعبارة أخرى إن النفس عند ملا صدراً جسمانية الحدوث ولكنها غير تابعة للبدن ولا تتوقف حياتها على حياته، وكل ما في الأمر أنها لا تستطيع التكامل في الحياة الدنيا منفصلة عنه. وبالمثل يتوقف البدن عن الكمال والرشد^(٤). وأما النفس فإنها بمجرد الانعتاق منه تتابع مسیرتها وحدها وتتركه جثة هامدة لا حراك فيها.

و قبل ملا صدراً كان يشبهه الفلاسفة البدن بالنسبة إلى النفس بالسفينة بالقياس إلى ريانها، فإنه يعمد إلى قيادة السفينة بعد اكتمال صناعتتها ويسير بها. وأما ملا صدراً فإنه يشبه النفس بشرع السفينة، والفرق بين التشبيهين واضح بين وذلك أن الشراع هو الذي يحرك السفينة ويسيرها^(٥).

الموت في العرفان الإسلامي:

وأما العرفان الإسلامي والعرفاء المسلمين فينظرون إلى الموت بعين مختلفة، تكشف عن أبعاد جماله وعظمته. فهم بخلاف الماديين والحسينيين، لا يرون الموت عندما ونقضا أو فناء، بل يرون فيه انتقالاً من حياة إلى حياة أسمى منزلة وأرفع مقاماً. أو فلننقل الموت عند العرفاء ولادة جديدة فكما أن الطفل يبدأ حياته الحقيقية عندما يغادر رحم الأم وينفصل عنها، كذلك النفس تبدأ حياتها الخاصة بها عند مغادرة الجسد والانفصال عنه. وبهذا يكون العالم المادي بالنسبة للنفس أشبه بالرحم بالنسبة للجنين.

ومن العرفاء الذين تصدوا للحديث عن الموت في الأدب العرفاني الفارسي تجدر الإشارة إلى جلال الدين الرومي المعروف بمولوي؛ حيث يرى أن الطفل يتطور ويتكامل في رحم أمه ويطوئ خلفه مراحل عدة فيبدأ مادة لا حياة فيها، ثم ينتقل إلى المرحلة النباتية التي تتميز بخاصية النمو، ويرى أن هذا الانتقال هو موته للمادة ولولادة للحالة النباتية، وعلى هذا تقادس المراحل اللاحقة وبعد موته الحالة النباتية يولد الجنين ثانية في مرحلة الحيوان، وكذلك يموت الحيوان

ويولد الإنسان بعدها. وعندما يموت الإنسان في الكائن البشري ينتقل إلى حياة من نوع مختلف أشبه ما تكون بحياة الملائكة، ومن هنا فإنه يرى أن الموت لا يعد بأي حال من الأحوال نقصاً بل تكاملاً وولادة في مرحلة أعلى وأرقى من المرحلة التي كان عليها الإنسان قبل موت الإنسانية فيه.^(١)

وعلى ضوء هذه الرؤية لا تتحصر الحياة الحقيقية بالعيش في البدن وفي هذا العالم المادي، بل الحياة سلسلة متواصلة وانتقال من موت إلى حياة وولادة جديدة. وما أشبه هذا التصوير للموت بخروج التلميذ في المدرسة من مرحلة إلى مرحلة أعلى وانتقال من صف إلى صف أعلى، فليس الخروج من المرحلة الابتدائية مغادرة للمدرسة وموتاً للحياة المدرسية، وعدُّ هذا الانتقال موتاً ناتج عن الجهل بحقيقة الحياة المدرسية واقتضائها الانتقال المستمر من مرحلة إلى مرحلة أعلى منها وهكذا إلى يغادر المرء مقاعد الدراسة ويحول في ساحات العمل وميادينه ليتطور ما اكتسبه وحصله في صفوف الدراسة. والموت ينظر إليه العرفاء بالطريقة نفسها فهو تحليق من مرحلة إلى مرحلة وتكامل وارتقاء يجعل الإنسان لا يرى الفلك تحت قدميه.

وليس هذا التفسير العرفاني للموت بعيداً عن الرؤية القرآنية، فإن القرآن يشير إلى الحياة والموت بوصفهما دورات متعاقبة تخلف إحداها الأخرى؛ حيث يقول في سورة الروم: «كَيْفَ تَكُفُّرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَخْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحِيِّكُمْ ثُمَّ إِنَّهُ تَرْجَعُونَ».^(٢)

والمراد من الموت الأول في الآية موت المراحل السابقة على الحياة العادية: موت مرحلة الجمام والنبات ومرحلة الرحم، والحياة الأولى هي الحياة الدنيوية العادية، والموت الثاني هو الموت العادي المتعارف، وما بقي مرتبط بالحياة الآخرة.

وقد ورد المعنى عينه في آيات أخرى حيث يقول تعالى على لسان بعض العاصين: «قَاتَلُوا رَبِّنَا أَمَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَخْيَتَنَا اثْنَتَيْنِ فَأَغْتَرَنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِنَّ خُرُوجِ مَنْ سَبَّيلٍ؟»^(٣)

حقيقة الموت في القرآن:

ويبدو أن تحليل حقيقة الموت على ضوء القرآن الكريم لا تناح إلا بعد

تحديد معنى الحياة في القرآن وفهمها حق الفهم، تبعاً لقاعدة تعرف الأشياء بأضدادها. فالحياة في الفكر والثقافة الإسلامية صفة من صفات الله تعالى، حيث سبحانه بالحي، وفي تفسير وصفه بالحياة يعتقد الفلسفه والعرفاء المسلمين بأن الحياة الحقيقية هي عبارة عن مفهوم مقتن أو متلازم مع العلم والإرادة.^(٩) ولما كان يعتقد هؤلاء بأن صفات الله تعالى مطلقة لا يحدوها حد، بل هي المصدر والمنشاً لوجود ما سواه تعالى، كانت الحياة الإلهية الأزلية السرمدية منشأ للحياة عند الإنسان وغيره؛ أي الحياة المترنة بالوعي والإرادة وغيرها.

ويتمتع الإنسان بنوعين أو مرتبتين من الحياة إحداثها الحياة المادية؛ أي الحياة من الدرجة الثانية وهي الحياة المتوفرة في الكائنات الحية بأسراها. ويتمتع كذلك بحياة من نوع ثان لا يحظى به الحيوان، وهذه الحياة هي التي يعبر عنها القرآن الكريم بأنها روح الله في عدد من آيات القرآن الكريم.^(١٠) حيث يشير الله تعالى إلى النفح من روحه في الإنسان بعد تسويته، ولستنا ندعى وضوح مفهوم الروح والقدرة على فهمه كما تفهم وتعرف سائر الأشياء والمفاهيم، ولكن الفلسفة الإسلامية كما العرفان وأهله تصدوا لمحاولات تقارب الفهم إن هي عجزت عنه. ومن الآراء المطروحة في هذا الميدان تجدر الإشارة إلى اعتقاد عدد من الفلاسفة بأن الروح الرحمانية هي المخلوق الأول لله تعالى، وهي منشأ الوجود وتسمى بالروح الأعظم، وعلى ضوء ذلك يفسر نفح الروح يا فاضة الوجود من الدرجة الأولى على الإنسان.

وعليه فإن الإنسان مستأمن على هبة إلهية، بها حاز مقام الخلافة على الأرض، وبها أمرت الملائكة بالسجود له، وبهذه الأمانة والخلافة اكتسب الإنسان كرامته الذاتية، وهذا ما يميز النظرة الإسلامية إلى الإنسان عن النظرة الوضعية. فمهما فعل دعاة حقوق الإنسان وبناء المذاهب الفلسفية الإنسانية، فإنهم لن يستطيعوا إضفاء القداسة على الإنسان كما يفعل الإسلام، فشتان بين إنسان ليس فيه مما فوق عالم المادة شيء وبين إنسان جوهره الأصيل مستمد من روح الله. نعم إذا لم يكن الإنسان خليفة الله على الأرض فما الذي يميشه عن سائر الحيوانات.

والنتائج التي يمكن استخلاصها مما تقدم، هي:

أولاً: إن الإنسان بعد أن يكتسب وجوده وحياته، لا يمكن أن يفقد هذا الوجود وتلك الحياة ولا أن تعصف بهما رياح العدم؛ وذلك لأنه ثبت في الفلسفة أن العدم نقيض للوجود ولا يمكن أن يولد الشيء من نقائه. وعليه فإن الموت ما هو في الحقيقة الواقع سوى تبدل في شكل الحياة وتغيير فضائها، وليس للموت معنى عدمي سلبي، بل الموت مفهوم وجودي. ولأجل كونه مفهوماً وجودياً احتاج إلى خالق؛ ولذلك وصف الله نفسه في القرآن الكريم بأنه خالق الحياة والموت.^(١) والعدم لا يحتاج إلى خالق ولا يخلق إلا الشيء الذي له وجود.

ثانياً: وجود الإنسان وحياته ليسا ملكاً شخصياً له، بل هما وديعة إلهية استأمنه الله عليها، وفوض إلهي أمر إدارة هذا الوجود والاستفادة منه إلى أجل مسمى، وهو في ذلك أشبه براكب في قطار له حق الانتقال في هذا القطار من محطة إلى أخرى وليس له حق التصرف والسيطرة على هذا القطار. ومن هنا، حرم الإسلام على الإنسان الانتحار وإناء حياته، لأنه بذلك يكون قد تصرف في غير ما يملك وخان الأمانة التي أوكل الله إليه أمر حفظها وصونها. والقول عينه يصدق على التصرف في حياة غيره فإنه لا يحق للإنسان أن يتصرف في حياة غيره تحت أي عنوان من العناوين، فليس القتل مفهوماً أخلاقياً بحيث تبرره النوايا الحسنة بل هو أمر مرتبط بالقانون والفلسفة الإسلامية في مجال القانون والرؤية الكونية، ولذلك لا تبرر النية الحسنة القتل المعروف بالقتل الرحيم؛ حيث إن الحياة ملك إلهي ليس للإنسان إلا الخضوع لمقتضيات التكليف الإلهي فيه، ولا يحق له الانتقال من مرحلة وجودية (الحياة الدنيا) إلى مرحلة لاحقة (الموت) إلا بما ينسجم مع الإرادة الإلهية.

ومن هنا، نجد أن الإسلام يحرم على الإنسان الانتحار وقتل غيره ولو بدافع «الرحمة»، بل فرض أشد العقوبات في الدنيا والآخرة على القتل سواء كان قتلاً للنفس أو للغير. ومن ناحية فلسفية يعد قتل الآخرين وسلبهم حياتهم إخلالاً بنظام الوجود والتقدير الإلهي، حيث إن المعاناة في هذه الدنيا بسبب المرض أو غيره من جملة ما قدره الله لبعض النفوس فلا يتحقق لأحد أن يحتاز هذا التقدير ويقفز فوقه بطريقة غير طبيعية ومن خلال الانتحار أو القتل الرحيم. والله في تقديره العذاب والألم حكمٌ وغاياتٌ لا يجوز تجاوزها بطرق غير طبيعية، فكما

أن الرياضي لا بد له من المعاناة كي ينمّي قدراته، وكما أن الإخلال ببرنامج التدريب يعد خطأ فاحشاً في مسيرة النمو والتكميل في عالم الرياضة البدنية فكذلك المعاناة الروحية بسبب الألم أو غيره.

ولا تقتصر ملكية الله الحقيقة على حياة الإنسان وروحه، بل تتسع دائرة ملكه سبحانه لتشمل كل نفس سواء كانت حيوانية أو نباتية. ومن هنا، لا يجوز إتلاف هذه النفوس أو إزهاقها دون مبرر مشروع جعله الله سبباً للإذن باتلافها. وهذا يستفاد من وصف الإنسان بال الخليفة ومن مهمة الاستخلاف التي أوكلت إليه. وبالنظر في سيرة الإنسان المعاصر يبدو أنه لم يتقن حفظ الأمانة بل نراه يزهد الكثير من الأرواح والآنفوس على مذبح التطور والتقدمة، وبعثوا به برقة في ظاهرها ولكنها في الواقع وحقيقة الأمر والمآل إتلاف لما استأمنه الله عليه، وما أشبه الإنسان المعاصر بمن يحتطب فيقطع الفصل الذي يجلس عليه. وما أحوج الإنسانية إلى وعي دورها ومهمتها الأصيلة التي هي الاستخلاف وإعمار الأرض لا تخربها والإضرار بها وبمن وما عليها.

الهؤامش

- (١) ورقة مقدمة إلى مؤتمر حقوق الإنسان، كرسى حقوق الإنسان، جامعة الشهيد بهشتى طهران، ٢١ فبراير، ١٣٨٥.
- (٢) صدر الدين الشيرازي، الأسفار الأربع، ط ١، بنیاد حکمت إسلامی صدرا، ج ٣، ص ١١٣.
- (٣) الحركة الجوهرية مفهوم ابتكره الفيلسوف صدر الدين الشيرازي.
- (٤) يرى ملا صدرا أن سبب الموت هو إعراض النفس عن الدين لا خراب للدين نفسه. (الأسفار الأربع، ج ٩، ص ٦٥).
- (٥) الأسفار الأربع، ج ٨، ص ٦٩.
- (٦) الشاعر جلال الدين الرومي، المتنوی، الدفتر الثالث، البيت ٣٩٠١.
- (٧) سورة النقرة: الآية ٢٨.
- (٨) سورة غافر: الآية ١١.
- (٩) الأسفار الأربع، ج ٦، ص ٤٣١، ٤٣٧.
- (١٠) «ولقد خلقت الإنسان من صلبٍ منْ حَنَبِ مُشَنْعُونَ وَالْجَانِ خلقتَهُمْ مِنْ قَبْلٍ مِنْ ثُلُرِ السَّنُونِ وَإذْ قَالَ رَبُّكَ لِلنَّاسِ كُمْ بَخَلَقْتَ بَشَرًا مِنْ صَلْبٍ مِنْ حَنَبِ مُشَنْعُونَ فَلَمَّا سَوَّيْتَهُ وَنَفَخْتَ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَوَأْتَهُمْ سَاجِدِينَ» سورة الحجر: الآيات ٢٦ - ٢٩.
- (١١) يشير الكاتب إلى قوله تعالى: «ثَبَرَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَوِيرٌ.. الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَنْتَزَمُ أَيْمَنَ أَحْسَنَ عَمَلًا وَهُوَ الْغَرِيزُ الظَّفُورُ» سورة الملك: الآيات ١ و ٢.